الكاتب المصرى

صفر ١٣٦٦ — يناير ١٩٤٧

السنة الثانية — مجلد ٤ — عدد ١٦

ما وراء النهر (١)

والقراء بالطبع ينتظرون أن أرقى وأن يرقوا معى فى صحبة الشاعر إلى القصر لنرى صاحبه العظيم فى مكتبه ذاك الذى اتخذه لنفسه سجناً منذ آخر الليل. ولكنى لن أفعل، ولن يفعلوا؛ فهم لا يستطيعون أن يدخلوا القصر، ولا أن ينظروا إلى أبهائه الفخمة وأثاثه المترف الجميل، إلاّ إذا أتحت أنا لهم ذلك. فالربوة كلها بما عليها ومن عليها، والقصر كله بما فيه ومن فيه، سر من أسرارى أُبيح منهما للقراء ما أشاء، وأخفى منهما على القراء ما أشاء، ليس لهم أن ينازعوا فى ذلك أو ينكروا منه شيئاً. وقد أزمعت ألاّ أرقى معهم إلى القصر، ولا أبقى معهم على الربوة استجابة لأصل من أصول الفن كما أراه أنا، لا كما يراه النقاد. فلو قد رقيت معهم إلى القصر أو بقيت معهم على الربوة لأتصل الحديث اتصالا يوشك أن يكون مملاً؛ لأنه يضطرب بهم وبى فى هذه الحديقة الفيحاء، وهذا القصر الفخم، بين ألوان من الترف وفنون من الحياة الناعمة، قد يكون وصفها رائعاً، وقد يكون العيش فيها، ولو أثناء الأحلام وفى ظل الخيال، محبباً إلى النفوس، ولكنه يُمِلّ إذا اتصل ويسئم إذا طال. وليست الحياة ترفاً كلها ولا زينة كلها، وليس العيش الواقعى او الخيالى يكسب قيمته من البهجة التى يسبغها الجمال على هذا المنظر او ذاك من مناظر الطبيعة، وعلى هذا المظهر أو ذاك من مظاهر الناس. فلهذا كله قيمته، ولكن للقبح قيمته ايضاً، وهى ليست أقل من قيمة الجمال شأناً ولا أهون منها خطراً، ولعلها أن تكون أدعى

(١) الكاتب المصرى عدد ١٤ و ١٥ (نوفمبر — ديسمبر ١٩٤٦).

إلى المنفعة ، وأبلغ اثراً فى إصلاح النفس ، وتقويم الخلق ، وتصويب الحكم على الأشياء . ولست أدرى ! هل تعمق ابن المعتز معناه ذاك الذى أوجزه فى البيتين المشهورين :

قلبىَ وثابٌ إلى ذا و ذا ليس يرى شيئاً فيأباه
يهيم بالحسن كما ينبغى ويرحم القبح فيهواه

ولكن الشئ المحقق أن القبح خليق أن يعشق وأن تصبو إليه النفوس ، وتقف عنده العقول ، ويستقصى دقائقه الكتّاب والمفكرون . وما أظن أحداً يجادل فى أن نصيب القبح من حياة الناس أعظم من نصيب الجمال ، كما أن نصيب البؤس من حياتهم أعظم من نصيب النعيم . فالكتّاب الذين يُعْنَوْن بالجمال والنعيم وحدهما ، ويُعرضون عن القبح والبؤس ، إنما يعنون بأيسر الحياة ويعرضون عن أكثرها ؛ فهم يعلمون ويعلمون الناس ظاهراً من الأمر ، وهم يجهلون ويجهلون الناس بحقائق الأمور وبواطنها .

وأنا بعد هذا كله لا أريد أن أصرف نفسى وأن أصرف القراء عن جمال الربوة والقصر ؛ لأنى كلفٌ بالقبح مشغوف بالبؤس ، وأريد أن أشرك القراء فيما أجد من كلف وشغف ؛ وإنما هى طبيعة الأشياء ومنطق الفن وضرورة الحياة ، كل أولئك يقتضينى أن أدع الربوة وقصرها حيناً ، وأن أصحب القراء إلى مكان ليس له حظ من جمال ، وليس لأهله نصيب من نعيم .

فقد رأينا فيما مضى من هذا الحديث أن هذه الربوة الرائعة لا تقوم وحدها على شاطئ النهر ، وإنما تقوم فى أسفلها قرية بائسة وضيعة يعيش فيها قوم بائسون متضعون . فهذه القرية لم تنشأ عبثاً ، ولم تقم فى أسفل الربوة بغير غاية ، وإنما هى مكملة للربوة . وإن شئت فقل إن الربوة مكملة لها ؛ فقد اختلط الأمر علىّ حقّاً ، فلست أدرى أيهما يتم صاحبه ، أيهما الأصل وأيهما الفرع . فهذه القرية هى التى تستغل الأرض وتستثمرها ، وتستخرج منها هذه الثروة الضخمة التى تتيح لأهل الربوة أن ينعموا وأن يترفوا ، وأن يستمتعوا بهذه الحياة الحلوة الفارغة ، وتتيح للربوة نفسها أن تزدان بجمالها هذا الرائع الخلاب . فلولا أهل القرية البائسون ما ارتفعت الأشجار فى السماء ، ولا انبسطت الأزهار فويق الأرض ، ولا انتشر العشب على هذه الأرض كأنه البسط من السندس والحرير ، كما

يقال ، ولا أتيحت لأهل الربوة هذه الصغائر التوافه اليومية التى لاتستقيم بدونها حياة للمترفين وغير المترفين . فالقرية إذن هى الأصل ، وليست الربوة إلا ثمرة من ثمراتها وأثراً من آثارها . ولكن واقع الأمر الاجتماعى غير هذا كله ؛ فقد استقر فى نفوس أهل الربوة ، أنهم السادة المالكون ، وأن أهل القرية هم العبيد المملكون ، كما استقر ذلك فى رءوس أهل القرية أنفسهم ، وكما استقر ذلك فى القوالين المكتوبة والنظم الشائعة . فأنا إذن معذور إذا اختلط الأمر علىّ فلم أدر أتكون الربوة أصلا والقرية فرعاً ، كما يريد النظام وتريد القوانين ، أم تكون القرية هى الأصل والربوة هى الفرع ، كما تريد الحقائق الثابتة التى لا يبلغها جدال أو نزاع . وإذا كان غنى زيد يكون لفقر عمرو ، كما يقول أبو العلاء ، فقد لا نخطئ إذا عكسنا القضية وقلنا إن فقر عمرو يكون لغنى زيد . وسواء أكانت القرية أصلاً أم فرعاً ، فإنها قد وجدت فى أسفل الربوة ، ولم توجد عبثاً . فلا بدّ من أن نهبط إليها وإن كرهنا ذلك ، ولا بد من أن نقيم فيها وإن شق علينا هذا المقام . وأنا أريح القراء من مشقة هذا الهبوط ، فلا أسلك بهم تلك الطريق العريضة الطويلة التى تزدحم فيها السيارات مصعدة ومصوبة ، ولا أسلك بهم هذه الطريقة الضيقة التى يزدحم فيها الفلاحون على أقدامهم وعلى دوابهم مصعدين ومصوّبين ، وإنما أبلغ بهم القرية من غير طريق ؛ لأنى أريد ذلك وأستطيعه ما دام الأمر إلىّ ، لا إلى أهل الربوة ، ولا إلى أهل القرية ؛ ولا إلى القراء . فالكتّاب قديرون على شئ كثير إذا لم يفرضوا على أنفسهم ما يحبُّ النقاد أن يفرضوا عليهم من القواعد والأصول .

نحن إذن فى القرية فى زُقاق ضيق جدّاً لا يكاد يتسع لسعى اثنين أو ثلاثة إلا أن يتقدم بعضهم بعضاً شيئاً ما ، لتجد أقدامهم موصعها من الطريق . والزقاق قذر أبشع القذارة وأشنعها ، ترى العين فيه كل ما تكره ، ويشم الأنف فيه كل ما يكره . قد عاش اهله عيشة البؤس والضر والإهمال ، لم يُعْنَوْا بصحتهم لأن أحداً لم يعلمهم أن الصحة شىء يعنى به الناس . ولم يعنوا بنظافتهم لأن أحد لم ينبئهم بأن النظافة شىء يستحب ولأنهم لو أحبُّوا النظافة والتمسوها لما وجدوا إليها سبيلاً ، قد قصرت أيديهم عن وسائلها وأدواتها قصوراً تامّاً ؛ فهم يعيشون كما يستطيعون ، قد اختلط رجالهم ونساؤهم وأطفالهم وحيوانهم ودواجنهم اختلاطا بشعا بغيضاً . وقد رأيت ما ينشأ عن هذا الاختلاط من الشر والنكر والفساد .

وفى أعماق هذا الزقاق دار منخفضة ليست عظيمة السعة ، ولكنها على كل حال أوسع مما يجاورها من الدور قد انخفض بابها فلا يستطيع الإنسان أن يدخلها معتدل القامة إلا أن يكون قزما أو طفلا ، فأما إذا تجاوز القصر إلى شىء من الطول فلابد له من أن ينحنى ليلج من هذا الباب . وهو إذا تخطى عتبة الدار وجد نفسه فى فناء له شىء من عمق قد ارتبط فيه حمار وانطلقت فيه دجاجات ، وارتفعت فى بعض جوانبه مصطبة صغيرة ضيقة ، جلس عليها رجل قد تقدمت به السن وأدركه الضعف ، وكاد سمعه يثقل فهو لا يفقه ما يلقى إليه من حديث إلا أن يرتفع به الصوت ، وكاد بصره يذهب فهو لا يرى إلا أقرب الأشياء إليه ولا يراه إلا فى قليل من الوضوح . وبين يدى هذا الرجل نعال قديمة قد تخرقت وأدركها البلى ، وقطع من الجلد الرقيق والغليظ وأدوات يعمل بها فى هذا الجلد وفى تلك النعال . وهو مطرق إلى جلده ونعاله وأدواته ، تعمل يداه أحيانا فى ترقيع نعل أو إصلاحه وتكفّان عن العمل أحياناً ولكنهما لا تسكنان حين تكفّان عن العمل وإنما تعبثان بما أمام الرجل من جلد ونعال وأدوات .

وقد يأخذ الرجل قطعة من الجلد بكلتا يديه يشدّها إلى يمين ويشدها إلى يسار ، وقد يضع طرفا من أطرافها فى فمه كأنه يريد أن يقضمها ، وهو لا يريد قضما ولا التهاما ، وإنما يريد أن يمتحن متانة الجلد ، فهو يمسك طرفا منه بما بقى من أسنانه ، ويمسك طرفيه الآخرين بيديه ، وهو يشد إلى هذه الجهة وإلى تلك ليستيقن أن هذا الجلد متين صالح لترقيع هذه النعل أو تلك . والرجل فى أكثر أحواله صامت كالمتكلم ومتكلم كالصامت ، لا يوجه إلى أحد حديثا ، ولا يكاد يجيب إن وجه أحد إليه الحديث ، ولكنه على ذلك متحرك الشفتين دائماً متقلب اللسان فى الفم دائماً ، يغمغم بألفاظ لا يسمعها إلا هو والذين يدنون منه أشد الدنو . وهذه الألفاظ غامضة مختلطة ؛ فهو أحيانا يتحدث إلى جلده ونعاله يصف رثاثتها ومتانتها وحاجتها إلى الرتق والإصلاح ، وأحياناً يتحدث إلى أدواته يصف مضيها وكلالها وعجزها وقوتها ، وأحياناً يتحدث إلى نفسه فينشد محفوظات له من هذا الشعر العامى الذى تجرى به الألسنة وتسير فيه الحكم والأمثال . وعن يمينك وشمالك إذا تجاوزت عتبة الدار حجرتان ليس بابا أقل انخفاضاً من باب الدار ، ولعلهما أن يكونا أدنى منه إلى الأرض . فإذا دخلت إحدى هاتين الغرفتين لم تجد فيها إلا حصيراً قد ألقى على الأرض ، وصندوقا حقيراً قد وضع فى زاوية من

زواياها ، وجماعة من هذا الخبز العريض الرقيق المستدير قد رُصّ بعضها إلى بعض وارتفعت فى زاوية من زوايا الحجرة كأنها العمود ، تأخذ منها الأسرة حين تريد أن تطعم ، ومازال تأخذ منها والعمود ينخفض ويتضاءل ، حتى إذا دنا من الأرض عملت محبوبة صاحبة الدار على تجديده ورفعه ، فكان إعداد الذرة وإشعال الفرن إلى جانب المصطبة التى يعمل عليها الشيخ ، وانطلاق الدخان ، ويضطر الشيخ فى ذلك اليوم إلى أن يأخذ جلده ونعاله وأدواته ويجلس بها على الأرض أمام الدار . فإذا دخلت الحجرة الأخرى لم تر فيها إلا حصيراً قد أُلقى على الأرض ، وأغطية رثة قد نثرت هنا وهناك . فأما إحدى الحجرتين فقد كان يأوى إليها الشيخ الإسكاف ، ولنسمه محموداً ، وامرأته محبوبة . وأما الحجرة الأخرى فقد كان يأوى إليها أبناء الدار وهم ثلاثة أكبرهم أحمد قد نيّف على العشرين وكاد يبلغ الثلاثين ، وهو فتى طُوَال مظلم الوجه قوى الجسم قليل الكلام حائر الطرف لا تكاد عينه تستقر على شىء ، ولا تراه الدار إلا حين تغرب الشمس وتتقدم الليل لأنه يعمل فى الحقول . وأصغرهم على لم يتجاوز الثانية عشرة بعدُ ، وهو صبى قد أُهمل أشد الإهمال ، يلعب إن أتيح له اللعب ، ويعمل إن أتيح له العمل ، ويسرق إن أتيحت له السرقة . وبين هذين الابنين من أبناء الدار خديجة هذه التى كادت تبلغ العشرين والتى لم يُدْرَ من أين جاءت ، ولا لأى أبويها يمكن أن يضاف جمال وجهها الرائع واعتدال قامتها الجميلة ، وهذا الخفر الحلو الذى يصدر فى دعة وهدوء وأمن عن عينيها الجميلتين ، وهذا الحياء العذب الذى يعرب عنه وجهها الهادئ المطمئن ، وثغرها الذى يريد أن يبتسم ولكنه يمتنع على الابتسام ، وصوتها الممتلئ الرخيم الذى لا يكاد يتكلم إلا همساً ، وحركاتها الرشيقة المتزنة المعتدلة التى تدل على حياة قوية دافقة وعلى حياء شديد يمسك هذه القوة ان تندفع إلى أكثر مما ينبغى .

وهذه الفتاة الناعمة الغضة التى لا تلائم هذه الدار البائسة الخشنة ، تعيش بين أبويها وأخويها عيشة صامتة أو كالصامتة ، ساكنة أو كالساكنة ، مقبلة فى أكثر الوقت على مغزلها تديره فى أناة ورفق ودعة . فإذا كان موسم الحصاد خرجت مع أترابها من بنات القرية إلى الحقول فصيّفت ، كما يقول أهل الريف المصرى ، مع المصيفات ، وعادت مع الأصيل إلى أهلها بما التقطت من الحب المنتثر فى الحقول . وإذا كان موسم القطن خرجت مع أترابها من بنات القرية ، فشاركت فى جنى

القطن ، وعادت إلى أهلها مع الأصيل ، بما يتاح لها من أجر ضئيل . وقد رآها نعيم فيما يظهر مصيَّفة مع المصيفات أو جانية للقطن مع الجانيات ، فراقه منظرها الرائع فى ثيابها الرثة ، فلما أطال النظر إليها اشتد إعجابه بها ثم ميله إليها ، فعاود المرور بالجماعة التى كانت تعمل معها ، ثم حاول الوقوف إلى هذه الجماعة ، ثم حاول الحديث اليسير إلى هؤلاء العذارى ؛ وكان من شأن هذا كله أن يزيد إعجابه بهذه الفتاة وميله إليها وطمعه فيها ، وكان لحظُ الفتاة وصوتها هما اللذان وقعا من نفس نعيم أغرب الوقع وأعمقه وأعظمه فى نفسه أثراً ، حتى كتب فى دفتر يومياته يقول : « أوشك ان أظن بنفسى الجنون ؛ فإنى لا أنطلق فى الحقول ولا أتنزه فى الحديقة ولا أخلو إلى نفسى فى غرفتى إلا رأيت عيناً ساحرة فاترة تنظر إلىَّ فى أناة وخفر ، فتنفذ إلى أعماق نفسى وتلذع قلبى لذعا أليماً . وأنا لا أكاد أخلو إلى نفسى فى غرفتى أو خارج غرفتى ، فى القصر أو بعيداً عن القصر ، إلا سمعت صوت هذه الفتاة يبلغ أذنى حلواً رقيقاً رفيقاً ، ثم يصل إلى نفسى فيحدث فيها نشوة لا أشبهها بالطرب الذى تحدثه الموسيقى ، وإنما أشبهها بالنشوة التى تحدثها الخمر لقد استأثرت هذه الفتاة بنفسى . وما أرى أن الأمر سينتهى بينها وبينى كما تعودت الأمور أن تنتهى بينى وبين أترابها من حسان الريف . »

والقراء يعفوننى دون شك من أن أصور لهم ما كان بين نعيم وخديجة من قرب وبعد ، ومن دنو ونأى ، ومن هذه المحاولات الكثيرة المعقدة التى ينسج الحب خيوطها بين المحبين فى أناة ومهل ، ثم فى اندفاع وعجل ، ثم يأخذهم فيها كما تؤخذ الطير فيما ينصب لها من الشراك .

القراء يعفوننى من تصوير هذا كله ؛ فهم يعرفونه حق المعرفة ، يقرءونه فى القصص وفى شعر الشعراء ، ويجده كثير منهم فى أنفسهم ويسمعونه فيما يدار عليهم من الحديث . وهم بعد هذا يستطيعون أن يصوروا لشأة هذا الحب بين خديجه ونعيم كما يشاءون ، لاجناح عليهم فيما يبتكرون من صور وما يخترعون من أحداث ، فكل هذا لا يعنينى ولا يعنى القصة فى كثير أو قليل ، وإنما الذى يعنينى ويعنى القصة ويعنى القراء هو أن هذين الفتيين قد وقعا فى شرك من أشراك الحب ، فاضطربا فيه قليلا أو كثيراً يحاولان أن يخلصا منه وأن يعودا إلى الأمن والحرية وفراغ البال . ولكن إفلات العاشقين من أشراك الحب ليس أقل عسراً من إفلات الطير من أشراكها حين تقع فيها . فقد كان إذن ما لم

يكن بد من حدوثه ، ونظر الفتى المترف الغنى القوى الموفور فإذا هو أسير لخديجة بنت حمود الحذّاء .

ونظرت الفتاة البائسة اليائسة المطمئنة إلى بؤسها ويأسها ، فإذا هى مولهة بحبّ هذا الفتى ، الفتى المترف الغنى القوى الموفور . وكان الفتى يخلو إلى نفسه فيلقى نظرة من أعلى ترفه وشرفه وغناه إلى بؤس خديجة ويأسها وإعدامها ، فيأخذه شىء يشبه الدوار ، كيف هبط من أعلى عليين إلى أسفل سافلين !

وكانت الفتاةُ ترفع بصرها من أعماق يأسها وبؤسها وإعدامها فى دارها تلك الحقيرة الفقيرة ، إلى هذا القصر الشاهق على هذه الربوة الشامخة ، فيأخذها شىء يشبه الدوار حين تفكر فى أن الحبّ قد وثب بها إلى ذلك الفتى المترف الغنى القوى الموفور . ولكن الناس جميعاً يعلمون أن الحبّ لا يحتقر شيئاً كما يحتقر الرفعة والضعة ، ولا يسخر من شىء كما يسخر من تفاوت المراتب والطبقات . وهو قد هبط بالفتى إلى الفتاة أو صعد بالفتاة إلى الفتى ! لا أدرى ولكنه جعل كلاًّ منهما لصاحبه سيداً وعبداً . وقد انتهى أمر هذا الحبّ الى أبوى نعيم ، فابتسما له أول الأمر ، لم يريا فيه إلا لوناً من عبث الشباب وسخرا منه بعد ذلك ، لم يريا فيه إلا شيئاً من الجموح فى العبث ، وضاقا به بعد ذلك ، ورأيا فيه غلوًّا من الفتى فى هذا الجموح وصارفاً له عما يليق بمثله من الطموح إلى العظيم من الأمر ، وأخذا ينصحان للفتى فى رفق ، ثم فى عنف ، ثم فى إلحاح . ولكن أبا الفتى غلا فى إلحاحه وسخطه حتى انتهى الأمر إلى ما علمت . وانتهى أمر هذا الحبّ إلى أمّ خديجة ، فابتسمت له ابتساما مرًّا ، وفرحت به فرحاً حزيناً ، وهمّت أن تكفّ ابنتها ، ولكن نصحها لم يغن شيئا ، وهمّت أن تكتم الأمر على الشيخ الحذاء ، ولكن لسان النساء لا يحبُّ أن يستقر فى أفواههن ، وهمّ الشيخان أن يكفّا الفتاة ، فلما لم يبلغا شيئاً تواصيا بكتمان الأمر على ابنهما الفتى لأنه كان عنيفاً مخوفاً . والأمر ينتهى إلى غايته ؛ وهذا نعيم قد فُتِنَ بخديجةَ إلى أبعد حدود الفتنة ؛ فهو يعدها ويمنّيها ، وهو يرغّبها ويغريها ، وهو يختفظها آخر الأمر إن صحّ أن يكون سفرها إلى العاصمة اختطافاً ؛ فهى لم تكد تدعى إلى السفر حتى استجابت للدعاء مسرعة واستعدت له متهالكة ، وارتفع الضحى ذات يوم فلم ترَ الأسرة خديجة ، وتقدّم النهار فلم تعرف من أنبائها شيئاً ، وأقبل الأصيل فلم تعد معه إلى الدار ، وتقدم الليل فلم تعد ، وإنما عاد أخوها أحمد ثائراً

يكظم ثورته ، وفائراً يكتم فَورته . أقبل متجهما فلم يقل كلمة لأحد ، ولم يلقِ نظرة على أحد ، وإنما ألقى أدوات عمله فى مكانها من الدار ، واندفع إلى حجرة أبويه فأخذ من عمود الخبز شيئاً التهمه التهاماً وهو قائم لا يقول شيئاً ولا يردُّ على أحد حديثاً . فلما التهم ما كان فى يده من الخبز ألقى نظرة غاضبة على ما حوله ومن حوله ، ثم أدار ظهره ومضى صامتا لا يقول شيئاً ولا يلوى على شئ . قالت محبوبة لزوجها الحذاء فى صوت مرتعد حزين : ما باله ؟ وما الذى عرض له من الخطب ؟ قال الشيخ فى صوت هادئ ثابت يشيع فيه الحزن والغضب معا : افتقد أخته فلم يجدها ، وترامى إليه بعض ما طوينا عنه من الحديث . قالت محبوبة : وإذن ؟ قال الشيخ : وإذن فهو يسعى فى أثر أخته ، وما أدرى ! لعله لا يعود .

والناس يتمنون ويسرفون فى التمنى ، والأقدار تعبث بهم وبما يتمنون . ذلك أن الناس لا يعرفون إلا أنفسهم وقليلا مما يحيط بهم من الظروف ؛ فهم يدبرون ويقدِّرون فى دائرة ضيقة لا تكاد تتجاوزهم إلا قليلا . وآية ذلك أن نعيما كان قد دبّر أمره فأحسن تدبيره ، وقدّر خطته فأحسن تقديرها . لقد أحب الفتاة حبا لم يجرِّب مثله من قبل على كثرة ماجرب من العبث واللهو والحب أيضاً ؛ فهو مصمم على أن يحدث حدثا ذا خطر وهو المترف الغنى القوى الموفور . سيهبط إلى هذه الفتاة اليائسة البائسة الفقيرة الحقيرة ، فيتخذها لنفسه زوجا ويقسم بينها وبينه ما أتيح له من ترف وشرف وقوة وثراء . وهو قد قدّر غضب أبويه وعرف كيف يستعد للتخلص من أعقاب هذا الغضب . وهو قد قدّر ما بينه وبين الفتاة من اختلاف المنزلة وبعد الأمد ، وعرف كيف يستعد لإلغاء هذه المسافة البعيدة . أليس قد اختطف الفتاة فباعد بينها وبين قريتها وبيئتها وأهلها ليخلقها فى العاصمة خلقاً جديداً ! لقد دبّر وقدّر وأحسن التدبير والتقدير ، واطمأن إلى أنه بالغٌ بحبه ما أراد له من الأمن والثقة ، ومن الدعة والهدوء . ولكنه لم ينس إلا شيئاً واحداً ، وهو أن لهذه الفتاة أخا فى مثل سنه ليس مترفا ولا غنيا ولا قويا ولا موفوراً ، وهو من أجل ذلك حاقد حانق ، قد ملأ السخط قلبه وملك الغيظ نفسه ، فرآه الناس إنسانا مثلهم يغدو ويروح ويعمل فى الحرث والزرع ، ورأته الطبيعة شيطاناً مريداً ينتظر أن تتاح له الفرصة ليملأ الأرض من حوله شرًّا ونكراً . وقد أتيحت له الفرصة ؛ فهذه أخته التى

كان يحبها وحدها من دون الناس ويؤثرها بقلبه كله ونفسه كلها، قد غوت وهوت. أغواها ذلك الفتى المترف الغنى القوى الموفور. وإذن... وإذن ففى نفس الوقت الذى انصرف فيه نعيم عن الشاعر فرحاً حزيناً ومسروراً كئيباً، ونهض الشاعر فيه مسرعاً يرقى إلى القصر للقى صاحبه فى مكتبه ذاك، فى نفس هذا الوقت وقبل أن يصل الشاعر إلى صاحب القصر يستفيض فى القرية الحقيرة الفقيرة البائسة نبأ يملؤها خوفاً وروعا؛ فقد لحق أحمد بأخته فى العاصمة وقتلها وأسلم نفسه للشرطى معترفاً بأنه اقترف هذا الإثم دفاعاً عن عرضه المكلوم.

فلندع القرية تتسامع بهذا النبأ وتقبادل الحديث فى تفسيره وتأويله، ولندع الأبوين وقد اخذتهما الصاعقة حين أتاهما هذا النبأ، ولنعد مسرعين فنصعد إلى الربوة من أقصر الطرق المؤدية إليها، فسنرى الشاعر قد ارتقى سلّم القصر. ولم يكد يبلغ البهو الأول من أبهائه حتى رأى نفسه فى مرآة هناك، ورأى أنه معتدل القامة يمشى على اثنتين، فما أسرع ما ينحنى على العصا، وما أسرع ما يدور فى رأسه هذا البيت كأنه يسمعه من صاحب القصر:

وتقول بوزع قد دببت على العصا هلاّ هزئت بغيرنا يا بوزع

طه حسين

يتبع]